مقاربة نفسيّة للمصطلح النّقدي عند "حازم القرطاجني"

قارة حسين●

يتمحور بحثنا في هذا المقال حول مصطلح "النّفس" عند حازم القرطاجني من خلال كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" باعتباره مفتاحا من مفاتيح قراءة وفهم المشروع النّقدي عند حازم،بالإضافة إلى مصطلح "التلقي" ومصطلح "التخييل". ويشتغل هذا المصطلح عند "حازم" ضمن مجموعة من التعالقات مع مصطلحات أخرى لتشكل منظومة مصطلحيّة نفسيّة في طبيعتها ونقديّة في تطبيقها على النّص الأدبي عموما، والشعر على وجه الخصوص، ومن هذه المصطلحات التي استوقفتنا مصطلح "التحسين" و"التعجيب" و"التحريك" التي توصف أحيانا بأنها حركات "النّفس" في قول أو استقبال الأقاويل الشعريّة عل حد تعبير حازم القرطاجني.

Abstract:

In this article our study is focused on the term "Nafs" (psyche) such as it developed in "Hazim El Carthajani's " famous work "El Minhaj", this choice is due to our conviction that to understand the critical theory of "hazim" will be done only by a good comprehension of its terminology, and her psychics signification, we can quote as example the terms: "el talaqi", "el takhyil", "el tahssine", "etâjib", "and tahrik", these terms "hazim" use them in a very determined notional- system,and often in a psychic context.

تمهيد:

نعتقد جازمين أن مفاتيح قراءة الفكر النّقدي عند "حازم القرطاجني" وفهمه ثلاثة يمكن أن يكون لها رابع أو أكثر، لكننا في هذا المقال سنسلم انه أنها ثلاثة هي: "التلقي"، "التخييل"، و"النّفس"، وسنسعى في هذه الدراسة لاستقراء مصطلح "النّفس" باعتباره محوريا في نظرية التلقي عند حازم، خاصة كما ورد في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء الذي حققه "محمد الحبيب ابن الخوجة"، ونال به درجة الدكتوراه من جامعة "السربون" في فرنسا، وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى في تونس سنة 1966م، ثم صدر في طبعة ثانية عن دار الغرب الإسلامي ببيروت عام 1981م، أما الطبعة الأخيرة الصادرة سنة1986م ببيروت، قد اعتمدناها في هذا المقال.

يُصنف كتاب "منهاج البلغاء" عند كثير من الدّارسين ضمن منظومة علوم البلاغة،

●قارة حسين،استاذ مساعد أ،كلية الآداب و اللغات،جامعة البويرة.

ولكنه في الحقيقة لم يتناول المسائل البلاغيّة في تفصيلاتها الجزئيّة كما هي عند أرباب البلاغة المعروفين، وإنما تناول الكليّات بحيث يمكن أن نصف "المنهاج" بأنه كتاب يندرج ضمن اجتهاد فلسفي أو (ما ورائي)، فكأنّه يعالج ما وراء علوم البلاغة، وإن كان يشترك مع المنجزات الأخرى في ميدان العمل النّقدي، فحازم يقول عن منهجه:« وقد سلكت من التكلّم في جميع ذلك مسلكا لم يسلكه أحد من قبلي من أرباب هذه الصناعة[...] فإني رأيت الناس لم يتكلموا إلا في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة، فتجاوزت أنا تلك الظواهر[...] قصدنا أن نتخطى ظواهر هذه الصناعة، وما فرغ الناس منه، إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغوا منه»(1). وإن كان من الصعب فهم قصد "حازم" من قوله تخطي ظواهر هذه الصناعة، نستطيع القول: إن هذا الكلام يشير إلى فرادة ما جاء به "حازم" في هذا الكتاب ولعل تركيزه على قوة النّفس في إدراك مسالك قول الشعر وفهمه ضرب من هذه الأصالة.

-1-أهمية المصطلح عند حازم القرطاجني:

إن لحازم القرطاجنّي قدرة فائقة ومتميزة على فهم القضايا اللّغويّة والأدبيّة، ومن الأدّلة على ذلك قوله:« إنّ المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكلّ شيء له وجود خارج الذهن، فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن، تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنيّة الحاصلة، عن الإدراك أقامَ اللّفظُ المعبَّرُ به هيئة تلك الصورة الذهنيّة في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ »(2).

إنّ القارئ "لمنهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني، يجد إحساسا قويا ووعيّاً كبيراً من لدن صاحبه بقضية الاصطلاح، فقد قال وهو بصدد الحديث عن ضروب التركيبات في أوزان الشعر العربي:« لا تشاح في الألفاظ كما أنه لا حرج على من عدل عما تقتضيه تلك الأسامي في المسميّات إذا أراد الإفصاح عن جهات مشابهاتها لما نقلت إليها منه التسمية والتمثيل الصحيح في ذلك»(3) كما يقول في موضع آخر« يسمى تضاد المعنيين تكافؤا، ولا تشاح في الاصطلاح».(4)

أقرّ كثير من النّقاد بهذه الأهميّة التي أولاها "القرطاجني" للاصطلاح أو المصطلح فهذا

(1)- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1981م، ص 18.
(2)- المرجع السابق، ص 18 – 19
(3)- نفسه، ص 48.
(4)- نفسه ، ص252.

"إحسان عباس" يقول: « وهو لذلك يدلّ على أنه [القرطاجني] لم يترك مصطلحا يمكن الإفادة منه في منهجه النقدي إلا حشده لهذه الغاية». (1)

أدرك الباحثون أيضاً « أنّ كثيرا من مصطلحات حازم ثنائية مزدوجة أو مركبة، كما أن مصطلحاته النّقديّة إما مبتكرة أو معدلة فليس ثمة موروث بقي كما هو. والتعليل غالبا ما يأتي معمقا، ويضيف إضافاته بمزيد من التحديد للمفهوم بتعميقه وإغناء أبعاده في نسق مفهومي وشبكة علاقات مع مصطلحات أخرى».(2

سعى نفرٌ من النّقاد إلى تصنيف المصطلحات عند حازم إلى:« بلاغيّة، وعروضيّة موسيقية، وأخلاقية، وأقيسة منطقية، إلا أنها حافظت على دلالاتها النفسية كما حدّدها أرسطو، وفسرها فلاسفة العالم الإسلامي متأثّرين بطبيعة الشعر العربي وموضوعاته وتقاليده»(3). وإنّ أكدنا على قول "رشيد سليم" في هذا الاقتباس بضرور التركيز على البعد النّفساني للمصطلح النّقدي عند حازم، فلا يجب الاعتقاد أن هذه الدلالات هي أرسطية خالصة .

-2- مصطلحات نقديّة نفسيّة في كتاب المنهاج:

سنحاول بعدما عرضنا الأهمية التي أولاها "حازم القرطاجني" للمصطلح، دراسة بعض المصطلحات النّفسانيّة، وقد اخترنا دراسة تلك التي أوردها صاحب "المنهاج"، مقرونة بمصطلح " النَّفْس "، و هذا الأخير يعد أساسياً ومحورياً في نظريّة حازم" النقدية.

فـ« مصطلحات مثل، "الحسن"، "التخييل"، "التحريك"، "المحاكاة"، "الارتياح"، "الإذعان"، "التزين"، "السرور"، "الطبع"، "القبض"، "القبح"، "العذوبة"، "التعجيب"، "الافتنان"، "الميل"، "الاكتراث"، "الكراهية"، "اللطافة"، "الهزة"... إلخ، لا يمكن أن تكون إلا أفعالا للنفس وأوصافا لها»(4). أو بتعبير آخر سلوكات تنتاب هذه "النفس" عند استقبالها الكلام الجيد والقول الجميل.

وأوّل مصطلح ندرسه في هذا المقام مصطلح " النَّفْس"، وقد حاولنا إحصاء توظيف

(1)- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1992 ص 562

(2)-فاطمة عبدالله الوهيبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003 م، ص259.

(3)رشيد سليم، الدّراسات النّفسيّة للأدب، (أصولها وتطبيقاته في النقد العربي الحديث)، رسالة ماجستير، جامعة باجي مختار، عنابة، 2004،ص111-112.

(4)- محمد رضا حسين علي مبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، عمان ، 1999م، ص33.

حازم لمادة [ن ف س]، بصغتيها، المفرد أي "نفس"، والجمع أي "نفوس" و"أنفس"، وتتضح أهمية مصطلح "النّفس" عند حازم من خلال الانتشار الكبير لهذا المصطلح في هذا الكتاب، فقد وظفه حازم في مئة و واحد وتسعين[191] موضعا بصيغة المفرد، كما جاء بصيغتي الجمع في مئة وسبعة وعشرين[127] موضعا أي بجموع [318] ثلاثمائة وثمانية عشر موضعاً. كما يستعمل القرطاجني صيغة "نفساني" على وزن "فعلان" الدّالة على الحركة(1) كقوله: « انفعالا نفسانيا»(2) أو قوله:« فهذا حكم الفضائل النّفسانية».(3) وهو في ذلك يحذو حذو الفلاسفة أمثال "الفارابي" و"ابن سينا" وغيرهم، فهي [الصيغة] السائدة عند القدامى في وصف كل ما يتعلق بالنّفس. يقول ابن منظور في "لسان العرب"(4) مادة[ن ف س] : « النَّفْس في كلام العرب يجري على ضربين: أَحدهما قولك خَرَجَتْ نَفْس فلان أَي رُوحُه، وفي نفس فلان أَن يفعل كذا وكذا أَي في رُوعِه. قال ابن خالويه: النَّفْس ما يكون به التمييز، [...]. والعرب قد تجعل النَّفْس التي يكون بها التمييز نَفْسَيْن، وذلك أَن النَّفْس قد تأْمره بالشيء وتنهى عنه، وذلك عند الإِقدام على أَمر مكروه، فجعلوا التي تأْمره نَفْساً وجعلوا التي تنهاه كأَنها نفس أُخرى، [...] لكل إِنسان نَفْسان: إِحداهما نَفْس التمييز وهي التي تفارقه إِذا نام فلا يعقل بها، [...] والأُخرى نفس الحياة وإِذا زالت زال معها النَّفَسُ، وسميت النَّفْسُ نَفْساً لتولّد النَّفَسِ منها واتصاله بها والنائم يَتَنَفَّسُ، قال: وهذا الفرق بين تَوَفِّي نَفْس النائم في النوم وتَوفِّي نَفْس الحيّ»(5).

ومن الطرافة في هذا المصطلح أنه حافظ على دلالته الأولى وهي [النَّفَس] في التعبير الدارج على وجه الخصوص، وهو المعنى نفسه في الأصل اللاتيني، وفي هذا الصدد يقول A.M.Goichon ضمن حديثه عن الصعوبات التي واجهة "ابن سينا" في نقل المصطلحات إلى العربية: «L'adaptation serait plus complexe quand il s'agit d'un terme tel que nafs,

(1)-انظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، بيروت، لبنان،2003م، ص385.

(2)-حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1981م، ص85.

(3)- نفسه، ص168.

(4) -علينا أن ننبه أننا سنستعين بالمفاهيم اللّغوية المعجمية لهذه المصطلحات اعتماداً على معجم واحد فقط، وهو "لسان العرب" لابن منظور لأن « لسان العرب معجم جامع لخمسة معاجم هي على التوالي: "تهذيب اللّغة" للأزهري- "المحكم" لابن سيده-و"الصحاح" للجوهري-و"حاشية الصحاح" لابن برّي- و"النهاية" لابن الأثير » ينظر: ياسين صلاح الأيوبي، معجم الشعراء في "لسان العرب"، مجلة المورد، العدد السادس،1977م، بغداد، ص25.

(5)- ينظر: جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د-ت، مادة: [ن ف س].

والباحث نفسه dont la racine donne l'idée de souffle, comme en latin, spiritus ». (1) يرى أن دلالة هذا المصطلح تطورت لاحقاً لتحمل معنى النَّفَس الحيوي للروح le souffle vital» «d'âme، الذي كثيرا ما حملته الآيات القرآنية، وهو نفس المعنى الذي عرفه المسيحيون(2).

مصطلح النّفس عند الفلاسفة عموما وعند ابن سينا على وجه الخصوص: هو قوةٌ في الإنسان ملازمةٌ للبدنِ مستقلةٌ عنه وفاعلةٌ فيه، ومنفعلةٌ بالمدركات، بمعنى تُؤَثر وتَتَأَثر، وهي مُدْرِكَةٌ للمعقولاتِ دون الآلات، أو بتعبير آخر:«النّفس عبارة عن كمال أوّل لكل جسم طبيعي من شأنه أن يفعل أفعال الحياة».(3) وهو في الحقيقة مفهوم أرسطي.(4)

ومن الأجسام الطبيعية: النبات، الحيوان، الإنسان، ويصطلح "ابن سينا" على هذه القوة في البشر بـ: "النّفس الإنسانية" أو "النّفس الناطقة"، وهي بخلاف "النّفس النباتية" و"النّفس الحيوانية"، تفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري، والاستنباط بالرأي، ومن جهة تدرك الأمور الكليّة، وهي وإن شابهت "النّفس النباتية" و"النّفس الحيوانية" في أفعال الحياة [الغاذية، النامية، الحاسية]، تختلف عنها بتفردها بالنشاط الذهني الصرف(5). والمهم من هذه المعاني المختلفة لمصطلح "النّفس" اعتبارها "قوّة (6)مُمَيِّزَةٌ" (7) لأن أبسط تعريف للنقد

(1)-A.M.Goichon: La philosophie d'Avicenne et son influence en Europe médiévale, librairie d'Amérique et d'orient, 2ed, paris, 1979, p66.

(2) -ibid. p66.

(3) - ينظر: عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس 1991م، ص396-397.

(4)- «Avicenne transposa aisément en arabe la définition qu'Aristote donne de la ψυχή »

- A.M.Goichon, ibid. p66

(5)- ارثور سعدييف، ابن سينا، تر: توفيق سلوم، دار الفارابي، ط2، 2001م، الجزائر ص156-157.

(6)-القوّة "Force" أو قدرة "Habilité" هي كل مسبب ومنتج لأثر وتُوُصف بمحرك أي "Moteur". « Toute cause capable de produire un effet.

«habileté, habile, qui a la capacité

Petit dictionnaire français, librairie Larousse, paris, 1984, p270-271,304 ,يُنظر

وفي علم النّفس الحديث غالبا ما يستعمل مصطلح "الطاقة" بديلاً لمصطلح "القوّة" كقول "فرويد" في حديثه عن مصطلح الليبيدو« كان لنا الخيار بين أن نقلع نهائياً عن استخدام مصطلح الليبيدو هذا وبين أن نستعمله للإشارة إلى الطاقة النّفسية إجمالا» ينظر: سيغموند فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، تر:جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت1980م، ص122.

(7) - وهو المفهوم نفسه الذي نجده عند الفارابي حين يقول:« والقوّة الناطقة هي التي بها يعقل

الأدبي هو تمييز الجيّد من الرديء والحسن من القبيح في الأعمال الفنيّة أو الأدبيّة.

وعند جمهور الفلاسفة « القوى العظمى التي للنّفس خمسة: الغاذي والحاس والمتخيل والنزوعي والناطق[...] والمتخيلة هي التي تحفظ رسوم المحسوسات، بعد غيبتها عن مباشرة الحواس لها، فتركب بعضها إلى بعض تركيبات مختلفة، وتفصل بعضها عن بعض تفصيلات كثيرة مختلفة، بعضها صادق وبعضها كاذب وذلك في اليقظة والنوم جميعا».(1)2 وهم يرون أن الغرض من الشعر مرتبط بهذه القوّة في الإنسان فـ"الفارابي" مثلاً يقول: « إنّ الأشعار كلها إنما استخرجت، ليجود بها تخييل الشيء وهي ستة أصناف: ثلاثة منها محمودة وثلاثة مذمومة. فالثلاثة المحمودة أحدها الذي يقصد به إلى إصلاح القوّة الناطقة، وأن تسدد أفعالها وفكرها نحو السعادة. والثاني الذي يقصد به إلى أن يصلح ويعدّل العوارض المنسوبة إلى القوّة من عوارض النّفس، ويكسر منها إلى أن تصير إلى الاعتدال، وتنحط عن الإفراط. وهذه العوارض هي مثل الغضب وعزة النّفس والقسوة والنخوة والقحة ومحبة الكرامة، والغلبة والشره. والثالث الذي يقصد به إلى أن يصلح ويعدل العوارض المنسوبة إلى الضعف واللين، من عوارض النّفس، وهي الشهوات واللذات الخسيسة ورقة النّفس، ورخاوتها والرحمة والخوف والجزع والغم والحياء والترفه واللين. والثلاثة المذمومة هي المضادة للثلاثة المحمودة، فإن هذه تفسد كل ما تصلح تلك وتخرجه عن الاعتدال إلى الإفراط. »(3)

ويذكر "حازم" قوى النّفس في كتابه ويقول: « القوّة الحافظة فهي أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض، محفوظا كلها في نصابه »(4).«القوّة المائزة هي التي بها يميز الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك. والقوى الصانعة هي التي تتولّى العمل في ضمّ بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظميّة والمذاهب الأسلوبية إلى بعض والتدرّج من بعضها إلى بعض، وبالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليّات هذه

الإنسان، وبها تكون الروية، وبها يقتني العلوم والصناعات، وبها يميز بين الجميل والقبيح » ينظر: ماجدي فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الفلاسفة الخلقيون، ج2، الأهلية للنشر والتوزيع، 1978م، بيروت، ص68.

(1)- ماجدي فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الفلاسفة الخلقيون، ج2، الأهلية للنشر والتوزيع، 1978م، بيروت ، ص68.

تنقسم قوى النّفس عند فلاسفة المسلمين عموما إلى مدركة ومحركة. وعند ابن سينا القوى المدركة تنقسم بدورها إلى قسمين: ظاهرة وباطنه، والظاهرة هي قوى الحس الخمسة المعروفة نحو حاسة البصر والشم والسمع والذوق واللمس، أما الباطنة هي خمس أيضا وهي: القوّة الخيالية، والقوّة الوهمية، والتي تدرك المعاني، والمراد بالمعاني ما لا يستدعي وجوده جسماً على العكس من الصور التي لابد لوجودها من جسم.

(3)- نفسه، ج2، ص77.

(4) -القرطاجني، المنهاج، ص42.

الصناعة ». (1)

والملاحظ في وصف "حازم" لهذه القوى النّفسانية أنّه يستعمل صيغة [فاعل] الدّالة على المشاركة(2)، ذلك يعني أن هذه القوى تشارك بعضها بعضا، وتتعلق جميعها بحركات النّفس. وهذه القوى تختلف من إنسان لآخر، أو من شاعر إلى آخر، وفي ذلك يقـــــول حازم: « لقوى النّفوس تفاضل في ملاحظة الجهة/ النبهة في نسبة معنى إلى معنى والتنبّه إليها».(3)

وبالإضافة إلى هذه القوى الثلاثة يذكر "حازم" "القوة الشاعرة"، ووظيفتها إنتاج المعاني بحيث يقول: « ولاقتباس المعاني واستثارتها طريقتان: احدهما تقتبس منه لمجرد الخيال وبحث الفكر، والثاني تقتبس منه بسبب زائد على الخيال والفكر. فالأوّل يكون بالقوّة الشاعرة ويحصل لها ذلك بقوّة التخيّل والملاحظة لنسب بعض الأشياء من بعض ولما يمتاز به بعضها من بعض ويشارك به بعضها بعضا»(4).

يستعمل "القرطاجني" صيغة "نفساني" على وزن "فعلان" وهي صيغة مصدرية دّالة على الحركة(5) وهي المتواترة عند الفلاسفة خصوصاً، والقدامى عموماً كما اشـــرنا إليه سابقاً. وقد استعمل صيغة "نفسيّة" مرة واحدة في المنهاج وذلك في قوله: « والأغراض هي الهيئات النّفسيّة»(6). وكثيرا ما يستعين "حازم" بالاصطلاحات النّفسانية السِّينوية كقوله مثلاً: « وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيًّا غير فكري»(7) فهو ينقل -هاهنا- رأي "ابن سينا" مفهومًا واصطلاحًا الذي يقول: « تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكري سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق». (8) ومعنى "نفسانيّا غير فكري"، أي تلقائي، وهو تصريح لا لَبْسَ فيه بأن

(1)-القرطاجني، المنهاج ، ص43.

(2)-عائشة عوجان، أوليّات علم الدلالة في الفكر اللغوي العربي القديم (دراسة نظرية وتطبيقية على ديوان الخنساء)، رسالة ماجستير، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،1999م ، ص110.

(3)-القرطاجني، نفسه، ص44.

(4) -نفسه، ص38.

(5)-انظر: عائشة عوجان، نفسه، ص112.

(6) -القرطاجني، نفسه، ص77.

(7)-القرطاجني، المنهاج، ص85.

(8) - يُنظر: ابن سينا، الشفا، فن المنطق (قسم الشعر)، تح:عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ط 1966م، ص 24. ويعرّف ابن سينا الانفعالات ويقول:« الانفعالات أحوال تتبع استعدادات تعرض للبدن بمشاركة النّفس الناطقة كالاستعداد للضحك والبكاء والخجل والحياء والرحمة والرأفة والأنفة » ينظر: ابن سينا، عيون الحكمة، تح: عبد الرحمان بدوي، ط2، دارالقلم، بيروت، لبنان 1980م، ص46.

وكثيرا ما ينقل "حازم"أقول "ابن سينا" لفظاً ومفهوماً كقوله:« وقد قال أبو علي ابن سينا: إنهم كانوا [غير العرب من الأمم] يزّلون الشاعر منزلة النبي فينقادون لحكمه ويصدّقون كهانته. هذا على أن العرب انتهت من إحكام الصنعة» ينظر: المنهاج، ص122

القدامى ميّزوا بين ما هو فكري ينتجه العقل، وما هو نفساني تنتجه هذه القوّة التي تسمى "النّفس". وهي الفكرة التي سعى إلى تكريسها "فرويد" ومن والاه في العصر الحديث، باكتشاف "التحليل النفسي" وتغييب سلطة العقل على الحياة النّفسيّة والسلوك البشري، وإسنادها إلى اللاشعور والغرائز الجنسية المختلفة.

وقد تحاشينا مثل هذه المقاربات بين ما توصّل إليه علم النّفس الغربي في العصر الحديث، والإسهامات النّفسانيّة الإسلاميّة المختلفة، لأن مثل هذا الإجراء المنهجي يجرنا إلى حقل بحثي آخر حتى وإن أقررنا بأهميته، نؤكد - في الوقت نفسه- أنه ليس من المحاور الأساسيّة لدراستنا هذه.

إنّ "حازم" وظّف "النّفس" توظيفا اصطلاحيّا فلسفيّاً نقديّاً أي كمصطلح لا كلفظ عام، بحيث نُقل هذا اللّفظ من دلالاته العامة التي جاء ذكرها في لسان العرب وذكرنا بعضها، إلى دلالة خاصة عند قوم معين هم الفلاسفة، وهذا المفهوم أو الدّلالة هي قوّة مميّزة في الإنسان، وهي تساهم في إنتاج المعاني والأقاويل في الشعر، بالإضافة إلى استقبال وتمييز الحسن والقبيح منه، وهو في الحقيقة مفهوم أرسطي محض(1). وتندرج تحت مصطلح "النّفس" بهذا المفهوم عند حازم مصطلحات مثل، "القوّة الحافظة"، "القوّة المائزة"، "القوى الصانعة"، "القوة الشاعرة".

2- بعض المصطلحات النّفسانية عند حازم:

تنتشر في كتاب "حازم" كثير من المصطلحات النفسانيّة الأخرى تدل على حركات للنّفس أو أوصاف لها، كما ذكر ذلك "علي مبارك"، وسبق أن ذكرنا على سبيل المثال مصطلحات:" الأثر"، و"الألم"، و"الإلف"، و"البسط"، و"القبض"، و"الطبع"، و"التخييل"، و"التحريك"، و"المحاكاة"، و"الارتياح"، و"الإذعان"، و"التزين"، و"السرور" و"الحسن"، و"القبح"، و"العذوبة"، و"الافتنان"، و"الميل"، "الاكتراث"، "الكراهية" و"اللّطافة"، و"الهزة"... إلخ. (2)

ففي مصطلح "التعجيب" يقول حازم: « والتعجب حركة للنّفس.»(3)،وقوله:

(1) - لكن من باب الإنصاف الإشارة إلى أنه حتى وإنْ نقل ابن سينا المفهوم الأساسي "للنّفس" عن أرسطو، قد خالفه في ترتيب قوى النّفس وذلك ما أشار إليه سعد مصلوح بقوله: « فعلى حين يرى أرسطو "أن الانفعالات الحسية تحفظ في أعضاء الحس الظاهر. يرى ابن سينا أن صور المحسوسات تحفظ في المتصورة...وتبعا لرأي أرسطو يستمد التخيل مادة وظيفته من أعضاء الحس الظاهرة. وتبعاً لرأي ابن سينا يستمد التخيل مادة وظيفته من المتصورة والحافظة». ينظر: سعد مصلوح، المرجع السابق، ص117.

(2)-علي مبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمان، 1999م ، ص33.

(3)- القرطاجني، المنهاج ، ص71.

«تعجيب للنّفس وانقياد إلى مقتضى الكلام.»(1) ومصطلح "البسط" حيث يقول:« تذعن[2] له النّفس فتنبسط »(3) و« ليبسط بذلك من النّفوس ويحرّك»(4). وهناك من المصطلحات التي تتقابل كـ: "الحسن"/ "القبح"، "البسط" / "القبض"، مثل قوله: « الأمر قد [يبسط] النّفس ويؤنسها بالمسرّة والرّجاء ويقبضها بالكآبة والخوف»(5) أو« ليبسط النّفوس له أو يقبضها عنه » (6)، وهو بذلك يحاكي فيلسوفه المفضل "ابن سينا" الذي يقول: والكلام المخيل« هو الكلام الذي تذعن له النّفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور». (7)

وهذه المصطلحات تختلف من حيث الانتشار في كتاب حازم، وخاصة عندما تقترن بمصطلح "النّفس"، والملاحظ أيضاً أن "القرطاجني" كثيراً ما يستعمل صيغة المصدر بوزن (تفعيل) كقوله في مصطلح "الحسن": « تحسين موقع الأسلوب من النّفوس »(8)، وقوله في مصطلح "الأثر"، ومصطلح "التخييل":« ما يراد من تأثير النّفس لمقتضاه. ويحسّن موقع التخييل من النّفس أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب فيقوى بذلك تأثّر النّفس لمقتضى الكلام.»(9).

وفي مصطلح "التحريك" يقول:« يتوصل بعد ذلك إلى الغرض المقصود بالشعر من تحريك النفوس[...]أن يجعل موضوع صنعته ما يتضح فيه حسن صنعته ويكون له تأثير في النّفوس وتحريك لها وحسن موقع منها».(10) وهذا الوزن « من أكثر أوزان المصادر أهمية في تكوين المصطلحات »(11)، ويمكن أن نلخّص هذه المصطلحات كالتالي: يقع الشعر في النّفس حسن موقع، فيحدث فيها أثراً ومن مظاهر هذا التأثر البسط والتحريك. ويعتبر مصطلح "الحُسْن" من أكثر هذه المصطلحات انتشارا -في كتاب "حازم"- وهو مقرون بمصطلح "النّفس".

(1)-نفسه، ص295.

(2) -قال ابن منظور:« قال الله تعالى: وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين قال ابن الأعرابي مذعنين مقرين خاضعين وقال أبو إسحق جاء في التفسير مسرعين، قال والإذعان في اللّغة الإسراع مع الطاعة تقول: أذعن لي بحقي معناه طاوعني لما كنت ألتمسه منه وصار يسرع إليه. وقال الفراء: مذعنين مطيعين غير مستكرهين وقيل مذعنين منقادين وأذعن لي بحقي أقر وكذلك أمعن به أي أقر طائعا غير مستكره». ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة [ذ ع ن].

(3)- القرطاجني، المنهاج، ص85.

(4)-القرطاجني، نفسه، ص330.

(5)- نفسه، ص11.

(6)-نفسه، ص23.

(3) -يُنظر: ابن سينا، المرجع السابق، ص 24.

(8)-القرطاجني، المرجع السابق، ص357.

(9)- نفسه، ص90.

(10)- نفسه، ص31.

(11)- فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995 م، ص52.

يقول ابن منظور في مادة [ح س ن]:« الحُسْن ضد القُبْح ونقيضه[...] تقول: حَسُنَ الشيء وإن شئت خففت الضمة فقلت حَسَن الشيء ولا يجوز أن تنقل الضمة إلى الحاء، لأنه خبر وإنما يجوز النقل إذا كان بمعنى المدح أو الذم، لأنه يشبه في جواز النقل بنِعْمَ وبِئْسَ وذلك أن الأصل فيهما نُعُم وبُئُس فسكن ثانيهما ونقلت حركته إلى ما قبله [...] وحسّنت الشيء تحسينا زينته وأحسنت إليه وبه [...] والعرب تقول أحسنت بفلان وأسأت بفلان أي أحسنت إليه وأسأت إليه. وتقول والحسنى ضد السوء[...] وقوله تعالى والذين اتبعوهم بإحسان أي باستقامة وسلوك الطريق الذي درج السابقون عليه[...] وقوله تعالى إن الحسنات يذهبن السيئات[...] وقوله: تعالى وإن تصبهم حسنة أي نعمة وقوله: إن تمسسكم حسنة تسؤهم أي غنيمة وخصب وإن تصبكم سيئة أي محل[...] والإحسان ضد الإساءة[...] وأحسن به الظن نقيض أساءه. الإحسان عكس الإساءة. والعرب تقول أحسنت بفلان وأسأت بفلان أي أحسنت إليه.» (1)

نستنتج من قول ابن المنظور أن لفظ "الحسن" له الدلالات التالية: 1- الحسنى ضد السوء. 2-الإحسان أي الاستقامة.3-حسنة أي نعمة. 4- الحسنة ضد السيئة.5- حسّنت الشيء تحسينا زينته.

أما اصطلاحا فله أيضاً دلالات كثيرة فـ « يوصف الحسن بأنه حلال، يراد به مباح[...] وقد يوصف الحسن بأنه حق إذا كان واقعا من العالم[...] ووصف الحسن بأنه صواب صحيح وإن كان يفاد به أنه وقع على الوجه الذي أراده، وان كان قبيحا، كما يقال في الرامي انه أصاب الهدف [...] ووصف الحسن بأنه صحيح يفيد فيه وقوعه على وجه حصل به الغرض، ولذلك يستعمل ذلك في القبيح، إذا وقع موقع الحسن، فيقال طهارة صحيحة وإن وقعت بماء مغصوب، وشهادة صحيحة، إذا وجب الحكم بها.» (2)، ولذلك مثلا « وُصِفَ الكذب في الشعر بالحسن عند تحقيقه المعنى أو الغرض المقصود به ».(3)

ويقول "حازم": « ومن التذاذ النّفوس بالتخيّل أن الصور القبيحة المستبشعة عندما قد تكون صُوَرُها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيذة إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هي أمثلة له، فيكون موقعها من النّفوس مستلذًا، لا لأنّها حسنة في نفسها بل لأنّها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به »(4)

نفهم أن مصطلح "الحسن" عند "حازم" لا يدّل على الشيء "الحسن" في ذاته إنما مرتبط من جهة نفسانية أي: بموقعه في "النّفس"، فإذا استلذّته وقبلته، يوصف بالحسن وإن

(1)- ابن منظور، لسان العرب، مادة [ح س ن].
(2) - ماجدي فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الفقهاء والمتكلمون، ص 45 .
(3)-هذا قول للفارابي نقله ماجدي فخري، المرجع نفسه، ص46.
(4)- القرطاجني، المنهاج، ص 116.

كان قبيحاً. وإن وقع موقع المنافرة والاستهجان من "النّفس" فهو قبيح وإن حَسُنَ. ومن جهة ثانية بطريقة محاكاته، فإنْ حسنت "حسن" الشيء، وإن ساءت ساء.

وغالبا ما يتعلق التحسين والتقبيح بالصدق والكذب، فحتى وإن كان في الواقع الكذب قبيح والصدق حسن، ففي الشعر غير ذلك تماماً، لأن "التصديق" مطلوب في الخطابة، وفي الشعر يطلب "التخييل" وهي فكرة أرسطية نقلها الفارابي الذي يقول: « جودة التخييل غير جودة الإقناع والفرق بينهما أن جودة الإقناع يقصد بها أن يفعل السامع الشيء بعد التصديق به، وجودة التخييل يقصد بها أن تنهض نفس السامع إلى طلب الشيء المخيل والهرب منه، أو النزوع إليه أو الكراهة له، وإن لم يقع له بها التصديق».(1)

يوظّف "حازم" هذا المصطلح على وجهين الأوّل بسيط عام في حديثه عن المحاكاة كقوله في أنواع المحاكاة: « محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح، محاكاة مطابقة لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر.»(2) أو موقع التحسين والتقبيح من الصدق والكذب(3)، واستعمال آخر متعلق بـ"النّفس" وغالبا ما يأتي مقرونا بـ"موقع"، بالتالي يصبح مصطلحا مركباً أي "حسن الموقع"، ومَوْقع على وزن [مَفْعلْ] الذي يدّل على المكان، كالمفر أي: المكان الذي نفر إليه، ومسكن الذي نسكن فيه، ومنبت، ومدخل، ومسجد...الخ(4). ويقابل عند "حازم" مصطلح "الحسن" مصطلح "القبح"، ويليه من حيث الانتشار مصطلح "التحريك"، ثم مصطلح "البسط"، ثم مصطلح "الأثر".

وفي الحقيقة هذه عيّنة بسيطة من المصطلحات النّفسانية الكثيرة التي وردت في هذا الكتاب، والتي يجب أن تتضافر الجهود لدراستها، لأن كل مصطلح يصلح أن يخصص له بحثاً منفرداً، أو بتعبير المناهج الحديثة، أن يكون مدونة بحث مستقل.

وكما أشرنا إليه في بداية هذا الفصل هذه محاولة للفت النظر إليها، لأن « البحث العلمي في التراث على العموم، والمصطلحي منه على الخصوص، يعتبر من أهم العوامل المساعدة على إعمال المصطلح، وبعث الحياة فيه مُهمَلاً كان أم مجهولاً! والبحث في المصطلح التراثي كيف ما كان هو حركة لترويضه، وتجديد العمل به، ولفت الانتباه إليه، وكذا تطويره أيضاً! لأن التطور لا يكون إلا بالاستعمال أولاً في مجال البحث والدراسات العلميّة»(5).

(1)-ينظر: ماجدي فخري، المرجع السابق، ج2، ص77

(2)- نفسه، ص92.

(3)- يقول سعد مصلوح: يرى حازم أن أنحاء التحسين والتقبيح ثمانية وهي: 1- تحسين حسن لا نظير له.2- تحسين حسن له نظير. 3- تقبيح قبيح له نظير. 4- تقبيح حسن لا نظير له. 5- تحسين حسن له نظير. 6- تقبيح قبيح لا نظير له. 7 تحسين قبيح له نظير. 8- تحسين قبيح له نظير.

ينظر: سعد مصلوح، المرجع السابق، ص169.

(4)- ابن قتيبة، المرجع السابق، ص367-368.

(5)- فريد الانصاري، منهجية دراسة المصطلح التراثي، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي،

يظهر لنا مما تقدّم أن "القرطاجني" استطاع أن يقدم لنا تطبيقاً منهجياً أدبياً لمجموعة من المصطلحات النّفسانيّة في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء". كما أدرك "حازم" أهمية المصطلح فاعتنى به عناية كبيرة، سواء كان ذلك على صعيد التصور والفهم النظري، أو في الاستعمال النقدي الأدبي. كما لاحظنا أن مصطلحيّ "التلقي" و"النّفس"، هما مصطلحان أساسيان ومحوريان لفهم نظرية حازم النقدية والبعد النّفسي لها ، وبالإضافة إلى هذين المصطلحيّن هناك مصطلحات نّفسانيّة عند "حازم" كثيرة ومتنوعة، منها المركبة مثل: مصطلح القوّة الحافظة، ومصطلح القوّة المائزة، ومنها البسيطة كمصطلح "التحسين" و"التعجيب".

المراجع:

1. ابن سينا، عيون الحكمة، تح: عبد الرحمان بدوي، ط2، دارالقلم، بيروت، لبنان 1980م.
2. ابن قتيبة، أدب الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، بيروت، لبنان،2003م.
3. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط 4، 1992 ..
4. ارثور سعدييف، ابن سينا، تر: توفيق سلوم، دار الفارابي، ط2، 2001م، الجزائر.
5. جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د-ت، مادة: [ن ف س].
6. حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1981م.
7. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1981م .
8. رشيد سليم، الدّراسات النّفسيّة للأدب، (أصولها وتطبيقاته في النقد العربي الحديث)، رسالة ماجستير، جامعة باجي مختار، عنابة.
9. سيغموند فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، تر:جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت1980م.

معهد الدراسات المصطلحية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2000م، ص215.

10. عائشة عوجان، أوليّات علم الدلالة في الفكر اللغوي العربي القديم (دراسة نظرية وتطبيقية على ديوان الخنساء)، رسالة ماجستير، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،1999م.

11. عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991م.

12. علي مبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمان، 1999م

13. فاطمة عبدالله الوهيبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،ط 1، 2003 م

14. فريد الانصاري، منهجية دراسة المصطلح التراثي، نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي، معهد الدراسات المصطلحية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2000م.

15. ماجدي فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الفلاسفة الخلقيون، ج2، الأهلية للنشر والتوزيع، 1978م، بيروت،

16. محمد رضا حسين علي مبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، عمان ، 1999م.

17. محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،1995م.

18. ياسين صلاح الأيوبي، معجم الشعراء في "لسان العرب"، مجلة المورد، العدد السادس،1977م، بغداد.

19. A.M.Goichon: La philosophie d'Avicenne et son influence en Europe médiévale, librairie d'Amérique et d'orient, 2ed, paris, 1979.

20. Petit dictionnaire français, librairie Larousse, paris.